الكمال المسيحي

الأنبا مكاريوس

أسقف المنيا

إبارشية المنيا وأبو قرقاص
للأقباط الأرثوذكس

الكمال المسيحي

التدرُّج

إعداد:
مكاريوس
الأسقف العام

اسم الكتاب: **الكمال المسيحي**

المؤلف: مكاريوس، الأسقف العام.

الناشر: إيبارشية المنيا وأبوقرقاص للأقباط الأرثوذكس.

الطبعة: الأولى – نوفمبر ٢٠١٦

المطبعة: مطابع النوبار – العبور.

الغلاف: القس بولا وليم

العناوين: مجدي لوندي

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر وسائر بلاد المهجر

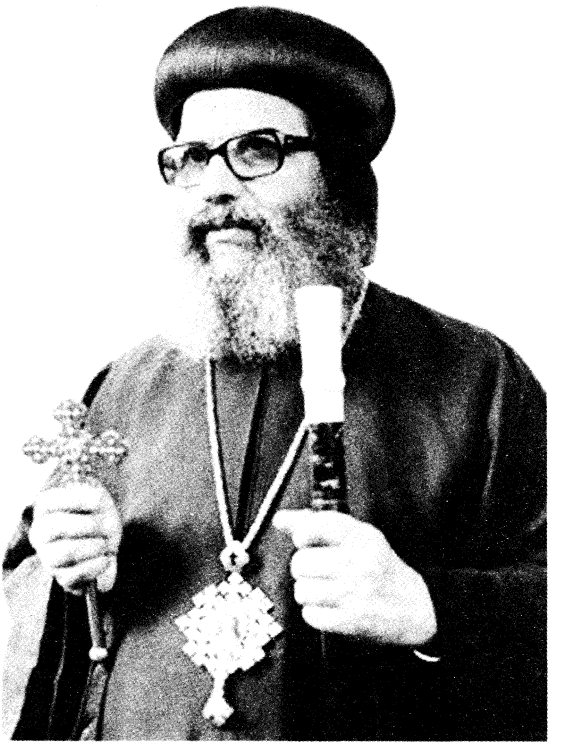

نيافة الأنبا أرسانيوس

مطران المنيا وأبو قرقاص

الكمال المسيحي

هل فقد الإنسان الكمال بالسقوط؟... وما هو هذا الكمال؟ وكيف يصل الإنسان إليه؟

الكمال هو دعوة الله لنا منذ القدم، لقد كلم الله قديما أبا الآباء إبراهيم ودعاه لحياة الكمال «ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: أنا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلاً» (تك١٧: ١). كما شهد الكتاب قديما لنوح البار بأنه كان كاملًا فى جيله «كَانَ نُوحٌ رَجُلاً بَارًّا كَامِلاً فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللهِ» (تك٦: ٩).

لقد رأينا فى حياة أبينا إبراهيم كيف أطاع الله وذهب من أرضه وعشيرته وأهله وهو لا يعلم إلى أين يذهب، وعاش متغرّبًا على الأرض بين الخيمة ومذبح الصلاة، بل وقدّم ابنه وحيده على مذبح الحب الإلهي والطاعة لله في إيمان بأن الله قادر أن يقيمه من بين الأموات، وفي تجرد من الماديات رفض أن يأخذ شيئًا من الممتلكات التى استردها من سالبيها وردها لأصحابها بعد معركة كسرة كدر لعومر «وَقَالَ مَلِكُ سَدُومَ لأَبْرَامَ: أَعْطِنِي النُّفُوسَ، وَأَمَّا الأَمْلاَكُ فَخُذْهَا لِنَفْسِكَ. فَقَالَ أَبْرَامُ لِمَلِكِ سَدُومَ: رَفَعْتُ يَدِي إِلَى الرَّبِّ الإِلهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لاَ آخُذَنَّ لاَ خَيْطًا وَلاَ شِرَاكَ نَعْل وَلاَ مِنْ كُلِّ مَا هُوَ لَكَ، فَلاَ تَقُولُ: أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ» (تك١٤: ٢١-٢٣).

الكمال المطلق والنسبي

الكمال المطلق هو لله وحده، لقد شهد الله عن أيوب البار بأنه كامل «كَانَ رَجُلٌ فِي أَرْضِ عَوْصَ اسْمُهُ أَيُّوبُ. وَكَانَ هذَا الرَّجُلُ كَامِلاً وَمُسْتَقِيمًا، يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ» (أي١:١). واستحق أن يدافع الرب عنه أمام حروب الشيطان «فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟ لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ، يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ» (أي١:٨).

ومع أنه كانت له بعض الضعفات ولكن الله يحكم على كل إنسان بالنسبة إلى إمكانياته وإلى عصره ومستواه وإلى عمل الروح القدس معه.

إن طالبًا في الابتدائي قد يأخذ الدرجة النهائية في الرياضيات فيقولون إنه كامل بالنسبة إلى هذا المستوى، وقد لا يفقه شيئًا في المستوي الأعلى. وهكذا قد يرتقي من مستوى الكمال في الابتدائية إلى مستوي الكمال في الإعدادية، ثم في الثانوية ثم في الجامعة؛ وكل هذا كمال نسبي، ومع ذلك لا يُحسب الطالب أنه قد صار كاملًا في الرياضيات فهناك مستويات ما تزال أعلى منه. إن الله يدعونا للنمو الروحي المستمر باستخدام كل وسائط، النعمة لكي يصل المؤمن إلى «قِيَاسِ (مستوى) قَامَةِ مِلْءِ الْمَسِيحِ» (أف٤:١٣). وليس هذا الوضع الروحي المرتفع إلاّ بعمل النعمة في النفس المجاهدة.

أُشـــتُهِر أحد المهندســـين المعماريين فى أمريكا ببراعته ونظرياته الرائعة فى التصـــميم، وعندما ســـأله أحد المعجبين بعلمه: "أيّة بناية تعتبرها رائعتك الفنية؟"، أجاب: "أود أن تكون البناية القادمة إن شـــاء لله!" فرد عليه أحد مساعديه: "ولكنك تقول دائمًا "البناية القادمة"، فمتى فرغنا منها لا تعود تهتم، وتعكف على التخطيط لغيرها"! قال له: "لأني عندما أراها فإني أكتشـف أن هناك ما هو أفضـل وأحسـن وأكمل في فكري، فلا يعود الحســـن يعجبني!". فإن كان ذلك يحدث في مجال الهندسة المعمارية فإن النفوس الفاضلة تسعى إلى الوصول إلى الكمال وتنظر دائمًا إلى الأفضل وتحتفظ بثباتها وتواضعها في تقدمها.

المحبة رباط الكمال:

يمكن أن يصـل المؤمن إلى الكمال النسـبي بالنمو في الفضـائل وعمل الخير والخدمة، مبتدئًا بالنمو في المحبة الباذلة «وَعَلَى جَمِيعِ هذِهِ الْبَسُوا الْمَحَبَّةَ الَّتِي هِيَ رِبَاطُ الْكَمَالِ» (كو٣:١٤).

الله محبة ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه. إن بناءنا الروحي يجب أن يقوم على المحبة التي شـــبّهها الآباء القديســـون مع التواضع بإنهما المادة الأساسية التي تربط البناء الروحي كله متماسكًا معًا، مثلما يفعل الأسمنت بالنسبة للحائط إذ يجعله متماسكًا في وحدة واحدة.

ويقدم لنا أحد الآباء القديســين في أوائل القرن الخامس الميلادي، تدرجًا للوصول إلى الكمال هكذا:

الدرجة الأولى: ألّا يبدأ الإنسان بظلم أخيه.

الدرجة الثانية: إذا أصيب الإنسان بظلم فلا يثأر لنفسه بظلم أشد، وإنما يكتفي بمقابلة العين بالعين والسن بالسن (المستوى الناموسي الموسوي).

الدرجة الثالثة: ألّا يقابل الإنسان من يسيء إليه بشر يماثله، إنّما يقابله بروح هادئ.

الدرجة الرابعة: يتخلّى الإنسان عن ذاته، فيكون مستعدًا لاحتمال الألم الذي أصابه ظلمًا وعدوانًا.

الدرجة الخامسة: في هذه المرحلة ليس فقط يحتمل الألم، وإنما يكون مستعدًا في الداخل أن يقبل الآلام أكثر مما يودّ الظالم أن يفعل به، فإن اغتصب ثوبه يترك له الرداء، وإن سخّره ميلًا يسير معه ميلين.

الدرجة السادسة: أنه يحتمل الظلم الأكثر ممّا يودّه الظالم دون أن يحمل في داخله كراهيّة نحو العالم.

الدرجة السابعة: لا يقف الأمر عند عدم الكراهيّة وإنما يمتد إلى الحب «أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ».

الدرجة الثامنة: يتحوّل الحب للأعداء إلى عمل، وذلك بصنع الخير «أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ»، فنقابل الشرّ بعمل خير.

الدرجة التاسعة والأخيرة: يصلّي المؤمن من أجل المسيئين إليه وطارديه.

كونوا كاملين..

أعطانا السيد المسيح ناموس الكمال، وسُمّي المنهج الذي قدمه بـ"إنجيل الميل الثاني"، وإنجيل النوافل (من نافلة، وهو ما زاد عن المطلوب أو المألوف)، ففي القديم سُمِح للشخص أن يحلف باسم الرب إلهه فقط وليس بالآلهة الوثنية، وفي العهد الجديد مُنِع من القسم تمامًا، لقد علّمه الصدق ومن ثَمّ فليس هناك من داعٍ للقسم أساسًا. في القديم كانوا يصفّقون ويرقصون متى فرحوا، فأصبحوا يلتزمون الوقار في التعبير عن الفرح إذ صاروا ناضجين. كانوا يقرضون الغريب بالربا وأما اخوتهم فلا، فأصبح المؤمن لا يستردّ ممن أقرضه، بل يعطون كل من يسألهم دون تمييز. طُلِب إليهم قديمًا بأن يسلّموا على الذين يسلّمون عليهم ويحبون من يحبونهم فقط، أمّا الوصية الجديدة التي أُعطِيت لهم، فهي أن يحبوا أعداءهم ويصلوا لاجل الذين يسيئون إليهم. في القديم قضى القانون أن عينٌ بعين وسِنٌّ بسِنَ، وفي الجديد تعلموا أن يُشتموا فيباركوا، ويبذلوا الخد الآخر، والميل الثاني، وأن يتركوا الثوب مع الرداء، ويفعلوا الخير دون أن يرجوا شيئًا.

في القديم تعلموا فعل الخير، والآن تعلموا "حب الخير". الشخص العادي يرى أن كل ما يمتلكه هو ملك خاص به، يترك منه عُشرًا لله، بينما يرى الشخص الكامل أن الكل هو من الله، يستبقي هو له منها

تسعة أعشار. العادي يأخذ حقه وبالكاد يغفر لمن أساء إليه، أمّا الكامل فإنه يترك فوق حقه، ويلتمس العذر مع المغفرة.

العاديون يتبعون قانون الكنيسة في الأصوام والصلوات والميطانيات، وأمّا الكاملون فهم يسمون فوق القوانين ويتجاوزونها إلى أعلى، فالقوانين وُضِعت للمبتدئين... إن الكمال هو طريق وليس محطة.. إنه مثل الذي ينزل إلى البحر وكلما اتجه الى عرضه، كلما شعر مع الوقت بأن أمامه أعماقًا كبيرة لم يبلغها بعد: «ليس أنّي قد نِلتُ أو صِرتُ كامِلًا، ولكني أسعَى لَعَلّي أُدرِكُ» (فيلبي٣:١٢).

ومن علائم الكمال: أن نعمل الخير في الخفاء، سواء الصلاة أو الصوم أو الصدقة، وهي أركان العبادة الثلاثة. وأن يحب الشخص بالرغم من عدم حب الآخر له أو كرهه إيّاه، وأن يعطي أفضل ما عنده وآخِر ما عنده، أن يتألم دون أن يشكو أو يتذمر، أن يصمت وهو قادر أن يبهر حينما يتكلم، أن يختفي وهو له حضور أينما وُجِد، أن يتمالك نفسه حين يحدث ما يثير الغضب، أن يشعر أنه أقلّ الجميع وهو متفوّق، أن يحيا متأهبًا للكمال: «لكَيْ يكونَ إنسانُ اللهِ كامِلًا، مُتأهِّبًا لكُلِّ عَمَلٍ صالِحٍ» (٢تيموثاوس٣:١٧)، أن يقضي حياته ساعيًا في التشبُّه بالمسيح الكامل (كولوسي١:٢٨) الذي دعانا أن نكون كاملين. «.. كُلُّ مَنْ صارَ كامِلًا يكونُ مِثلَ مُعلّمه» (لوقا٦:٤٠).

التدرُّج

التدرج منهج وفضيلة في التربية وفي الجهاد والعلاج وغيرها، وقد تسلمنا ذلك من الله نفسه، فعلى الرغم من أنه يستطيع كل شيء وفي أي وقت وفي زمن مدته صفر، إلّا أنه عمل كل شيء بترتيب وتدبير وهدوء، ومن ثَمّ فإن فضيلة التدرج ترتبط بالهدوء والصبر والتأني.

الخلق:

لم يخلق الله العالم في لحظة ولا في يوم واحد وإنما في ستة أيام، أيًّا كانت المدة الزمنية لليوم الواحد، فيقول مدخل سفر التكوين: «في البَدءِ خَلَقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ» (تكوين ١:١)، ثم يبدأ السرد في التفاصيل. ومن علامات التدرج أن الأرض بدأت في العشب ثم البقل ثم الشجر «وقالَ اللهُ: لتُنبِتِ الأرضُ عُشبًا وبَقلًا يُبزرُ بزرًا، وشَجَرًا ذا ثَمَرٍ يَعمَلُ ثَمَرًا كجِنسِهِ، بزرُهُ فيهِ علَى الأرضِ»(تك١:١١). ولعل الفلاح هو أكثر الأشخاص الذين يدركون حتمية التدرج، فهو يلقي البذرة في الأرض ويرويها، ويظل لأيام صابرًا واثقًا أنها تنمو تحت الأرض، حتى يراها ذات صباح وقد تحولت إلى نبتة صغيرة ومن ثَمّ إلى عشب ثم ساق وهكذا.. «ويَنامُ ويَقومُ ليلًا ونهارًا، والبذارُ يَطلُعُ ويَنمو، وهو لا يَعلَمُ كيفَ» (مرقس ٤:٢٧).

التمهيد للخلاص:

وقد تدرج الله مع البشر مُمَهِّدًا للخلاص، فلم يكن من المناسب أن يصفح عن آدم وتنتهي القضية، أو ينزل متجسدًا ويفتدي آدم، وإنما وجاء ذلك على مدار سبع مراحل: من آدم لنوح، ومن نوح لإبراهيم، ومن إبراهيم لموسى، ومن موسى لداود، ومن داود للسبي، ومن السبي إلى المسيح، ثم عهد النعمة. وقد مهّد الله لفكرة الخلاص ليس بين اليهود فقط، بل بين جميع الأمم وفي جميع الثقافات، ولذلك نجد صدى لها بين البابليين والصينيين والهنود واليمن والحبشة وغيرها. مما مهّد لانتشار المسيحية في العالم ببساطة. كما كان من فوائد الانتظار تجسيد نتائج الخطية والسقوط.

نما قليلًا قليلًا في شبه البشر:

قيل عن السيد المسيح إنه وهو في تجسده استمر جنينًا في بطن العذراء تسعة أشهر كاملة، ثم نما قليلًا قليلًا في شبه البشر (مثلما نقول في قسمة الأعياد السيدية) أي مثل البشر، ولم يأتِ رجلًا كاملًا وإنما مولودًا من امرأة، رضع من ثدييها ثم تناول طعامًا «وكانَ الصَّبيُّ يَنمو ويَتَقَوَّى بالرّوحِ، مُمتَلِئًا حِكمَةً، وكانتْ نِعمَةُ اللهِ علَيهِ»(لو ٢: ٤٠)،كما أن عبارة: «كانَ خاضِعًا لهُما» (لو ٢: ٥٠)، تختص بسن الطفولة والصبا.

التدرُّج في التربية:

هكذا تتدرّج الأم مع أطفالها وهي تربيهم، وتشعر بسعادة وهي ترى ابنها ينمو ببطء وتسمع منه أنّاته الأولى، وحروفه الأولى، وكلماته وجمله التي يركّبها حتى تصدّع من ثرثرته. وتتدرّج معه في الطعام ما

بين الرضاعة إلى الطعام الخفيف،وتحتمله في تدرجه. حتى في النصح والعقاب، وفي المشي يحبو ثم يخطو خطواته الأولى، وهكذا في التعليم هناك منهج متدرّج لتعليم الإنسان، وينبغي أن يكون منهجًا تراكميًا.

حتى الأطفال الذين لم يعيشوا سنهم جاءوا غير متوازنين، الذين سقطت منهم بعض المراحل إمّا لم يكتمل بناء شخصياتهم، وإمّا سوف يستعيدون تلك المراحل بشكل غير مقبول، مثل الرجل المتصابي والسيدة المتصابية، يلهوان ويمرحان ويرتديان مثل الأطفال.

من هنا ليس من المناسب أن يصادق الأطفال من هم أكبر سنا منهم، وإنما يحيون كل مرحلة كما هي، والمسيح عندما كان طفلا كان يسلك كطفل، وعندما كان صبيًا وشابًا وهكذا... هكذا قال الرب للقديس بطرس: «لَمّا كُنتَ أكثَرَ حَداثَةً كُنتَ تُمَنطِقُ ذاتَكَ وتمشي حيثُ تشاءُ...» (يوحنا ٢١:١٨).

طهو الطعام:

حتى في طهو الطعام هناك فرق بين الطعام المطهو بنار عالية أو بنار هادئة، الطعام السريع fast food وطعام المنزل ، ومثله الخبز المخبوز سريعًا والقربان وذلك المخبوز ببطء وتدرج.

وفي العبادة:

من الأفضل التدرج في تعليم الطفل الصلاة، من رشم الصليب إلى عبارات صغيرة، إلى "أبانا الذي"، إلى الأجبية، إلى فترات في القداس، إلى القداس كله. وفي الصوم نتدرج معه قليلًا قليلًا على مدار سنوات طويلة، من الصوم ساعة أو اكثر قبل التناول، إلى الصوم عن

الدسم، إلى الصوم أجزاء من الصوم الكبير أو صوم الميلاد. وكذلك في القراءة: أناجيل المعجزات والأمثال، إلى الرسائل والعهد القديم، إلى قراءات النبذات والقصص إلى الروحيات، إلى اللاهوت وهكذا. وفي حضور الكنيسة بشكل عام. أحيانًا ارتباط الشخص بالمكان وجدانيًا يجعله لا يتركه، وما كان يفعله قبلًا يستبدله بالصلاة والخدمة... ويقول الكتاب عن الحكمة الالهية انها مترفقة.

حتى في العلاقات الزوجية نتدرج مع الشخص حسب سني زواجه، ومع المبتدئين في الأيمان أيضًا.

إن التدرج يضمن سلامة البناء الذي نقيمه، فالذي يبني في يوم واحد ليس كمن يبني على مدار أيام عديدة، ويقولون في الأمثال إن "الصنعة المليحة تطول" لأنها ستكون متقنة. ذكّرني ذلك بالدواجن التي يسمّنونها بسرعة عن طريق الهرمونات، فتكبر بسرعة بشكل غير سليم وتسبّب الأمراض للذين يتناولونها.

في العلاج:

وفي العلاج أيضًا يحدّد الطبيب الجرعة على مدار أيام، وأحيانًا أسابيع، ولا يجوز أن يتناول المريض الكمية بكاملها، فإنها لن تشفيه حالًا بل قد تضره، وأحيانًا بعض الأدوية لا يمتص منها الجسم إلّا قدرًا مُعيَّنًا والباقي ينزل من الجسم، وبعض الأدوية تُعطى بشكل تنازلي مقابل تعويض الجسم لها مثل الكورتيزون. ومثل طريقة سحب المخدر تحتاج إلى خطة وهكذا. إن القرار يختلف عن الجرعة.

التدرج في نقل الخبر:

من المناسب أن ننقل الأخبار – سواء المؤلمة أو حتى المفرحة – بطريقة متدرجة، وما نطلبه نطلبه بالتدريج. يجب تمهيد الأجواء النفسية أولًا، أحيانًا بعض الأخبار المفاجئة تصيب بالشلل أو الصدمة وأحيانا تقتل، مثل المصري الذي قرأ خبر فوزه بعدة ملايين في ورقة يانصيب فسقط ميتًا! ويقولون عن شخص ما: "فلان مدب!!"، والعجيب أن مثل هذا الشخص يسمّي نفسه "دوغري وصريح وبيجيب من الآخر"!!

عندما عاد الزوج من السفر سأل خادمته عن قطته فأجابته بأنها ماتت، فصُدِم ومن ثَمّ طلب منها معرفة كيفية موتها، وبعدما استمع لها قال: "كان يجب أن تنقلي لي الخبر متدرجًا، بمعنى أن القطة كانت تقف في الشرفة، ثم مالت لأسفل، ثم انزلقت قدمها فسقطت، وبعد أيام ماتت"، فاعتذرت له لبساطتها. وعند عودته من سفرية تالية سألها عن والدته، فصمتت قليلا ثم هتفت: "لقد تذكرت.. لقد كانت تقف في البلكونة ومالت لأسفل.."، وهنا قاطعها الرجل: "فهمت فهمت... ماتت إذًا.."

ومن النماذج الجميلة في هذا الإطار طريقة الرب يسوع مع الكتبة والفريسيين حين أراد أن يستدرجهم لمنصة المحاكمة بعد مَثَل الكرم والكرّامين الأردياء (متى٢١:٣٣-٤٦)، وكذلك ناثان النبي مع داود حين حدّثه عن جريمته مع أوريا وزوجته (٢صموئيل١٢:١-١٥)، وحين أراد بولس الرسول أن يحصل على سماح فليمون لأنسيمس، وغيرهم.

إنها طريقة الشرح التي تؤدي إلى النتيجة، وليس النتيجة الصادمة والتي لا يُفلح الشرح بعدها.

كتاب الدرجي:

إنه الكتاب الشهير الذي تتلمذ عليه الكثيرون، فهو يتدرّج بالمجاهد من درجة إلى درجة، ويُسمّى "سلم الترقّي للفضائل".

ويحذر الآباء من الاندفاع في الجهادات لئلا نتصلّف، ولئلا لا نستطيع أن نكمل فنيأس. ويقول الاباء «إذا رأيتَ شابًا يصعدُ إلى السماءِ بهواه، فَشِدّ رِجلَه واطرحه فإن هذا أنفع له». وعندما التحق القديس موسى بالدير وكان طعامه كثيرًا، تدرّج الآباء معه في الطعام على مدار سنوات. وفي حياة الراهب يتدرّج بين المجمع والوحدة والسياحة، فإذا تسرّع سقط وفقد كل شيء.

ومثلما يتدرّج الشيطان في خداع الناس أي يستدرجهم، هكذا نتدرج نحن في اجتذاب الناس إلى الله، مثل الصياد الذي يتمهل حتى يضمن صيده، وإلّا فنتيجة للتسرع يفقده. حتى في جهاد أولادنا... وأتذكّر ذلك الأب الذي طلب من ابنه ان يعمل في حقله قليلًا قليلًا قدر حتى يتمّم العمل كله.

الطريق المتدرجة والسلالم المحسوبة مهما كانت كثيرة فهي تؤدي في النهاية إلى الهدف المطلوب، ويقولون "امشي على مهلك توصل بدري"، كما يقولون "امشي سنة ولا تخطي قنا (قناة)". واتذكر كيف أن بعض الأماكن العميقة جدًا يجعلون لها سلم حلزوني ارتفاع الدرجة فيه قليل جدًا، بحيث يشعر النازل عليه أنه يمشي ولا ينزل، حتى يجد نفسه في نهاية المطاف.

التدرج بشكل علم يحتاج إلى رؤية، ويحتاج إلى صبر وإلى طول أناة..